الحقيقة والرؤيا

عند المتنبي وابن الفارض

بقلم احسان الملائكة

احمد ابو الطيب المتنبي (٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ) وعمر ابو حفص ابن الفارض (٥٧٧ ـ ٦٣٢ هـ) شاعران من شعراء العصر العباسي ، تفصل بينهما هوة زمنية تقارب الثلاثة قرون ومع ذلك فان حبلا شديد المتانة يشدهما الى بعضهما ، ويجعلنا ملزمين ان نجمع شملهما في مبحث واحد نلم به ما تفرق من سيرتيهما وفنيهما وشخصيتيهما . ولقد لحظ فريق من مؤرخي الادب ان ابن الفارض ترسم اسلوب المتنبي ونحا منحاه في الشعر ، فهل يكون ذلك الوشيجة التي وصلت ما بين الشاعرين ؟ الواقع ان عقد المقارنات بين الادباء على هذه الطريقة لا يمكن ان يكون عملا مثمراً (فالشعر جادة وربما وقع حافر على حافر) على حد تعبير المتنبي ـ طيب الله ذكراه ـ فما الامر اذن ؟ وأين العلاقة؟ ذلك هو موضوع هذا البحث .

لقد شاء حسن الحظ ان يولد المتنبي في عصر ازدهار الحضارة العربية الاسلامية بل في قمة علاها وذروة مجدها . ففي ايامه كان الذهن العربي قد هضم جميع الثقافات الاجنبية ونمثلها بعد ان اختار منها ما يوافق فطرته الصافية ورفض ما تمجه طبيعته النقية السمحة ، وكان ان دان العالم المتمدن حينذاك من اقصاه الى اقصاه لمفاهيم الحضارة الجديدة ذات الحيوية الباهرة التي استطاعت ان تهزم كل ما انتجته الحضارات السابقة لها ، وتخضعها لمفاهيمها الخاصة، فلا عجب ان نجد الفارسي والهندي والاوروبي والافريقي قد هجر وطنه وقومه ودينه ولغته ، وعزف عن تراث اسلافه ، وانضم الى الكيان الحي الجديد العجيب ، اذ خلب لبه ما لحظه لدى هؤلاء العرب المسلمين من تسامح ومرونة وتفهم وسعة في الافاق الفكرية وتعشق للفنون والمعارف ، وتشجيع لكفاءات مهما كان مصدرها فرضي ان ينسى دنياه الاولى ويستقر في الوطن الكبير الفسيح ، دولة المسلمين العرب، المترامية الاطراف الشاسعة المسافات .

وللمتنبي خصائص وخلائق قد تبدو شديدة التناقض ولا يمكن اجتماعها في انسان واحد ، فبينا هو رجل عفيف النفس ظاهر الحياء كثير الانفة والترفع والاباء كأي انسان انطوائي خجول ، نراه في الوقت ذاته شديد الجراة سريع الاندفاع عظيم الشجاعة كاشد ما يكون الرجل الايجابي المتفائل جسارة وبسالة . وبينما ياخذنا العجب لرهافة حسه وتدفق مشاعره وحدة ذكائه وتوقد ذهنه ، وتلك صفات الفنان الرومانتيكي النزعة الذي ما زال في ميعة الصبا ، نعود فنجده رجلا ناضجا غزير المعرفة واسع التجربة ، قد عرك الدنيا وخبرها كافضل ما تكون عليه خبرات الشيوخ، والدهاة والعارفين بحقائق الحياة ووقائعها .

هذه الخصائص وامثالها هيات للمتنبي فرصة تفهم روح عصره واستيعاب اهم المبادىء السياسية ، والمذاهب الاجتماعية ،والنظريات الادبية التي نضجت ثمارها في زمانه . وبذلك استطاع ان يعبر عن ادق خلجات نفسه ، وان يكون في الوقت نفسه احسن مصور وافضل رسام للحياة في عصره ، بل ان يصبح اصدق مرآة لنفس كل فنان على مدى العصور .

وابو الطيب بالاضافة الى كل ذلك رائد من رواد الانطباعية بالمعنى الدقيق للمصطلح ، فهو يصبغ الاشياء والاشخاص والمعاني والافكار بطابعه الخاص المتميز الفذ . فتبدو وكانها قد تلونت واصطبغت بصبغة من روحه . هذه ـ على سبيل المثال ـ قصيدته الرنانة التي خلد فيها قلعة (الحدث) : ـ

هل الحدث الحمراء تعرف لونها ... وتعلم اي الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغرّ قبل نزوله ... فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فاصبحت ... ومن جثث القتلى عليها تمائم
أتوك يجرّون الحديد كأنما ... سروا بجياد ما لهنّ قوائم
اذا برقوا لم تعرف البيض منهم ... ثيابهم من مثلها والعمائم
خميس بشرق الارض والغرب زحفه ... وفي اذن الجوزاء منه زمازم
تجمع فيه كل لسن وامة ... فما يفهم الحدّاث الا التراجم
وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمرّ بك الابطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى ... الى قول قوم انت بالغيب عالم

* * *

ذلك هو المتنبي فما صلة شاعر الحب الالهي به ؟ نسأل قبل الاجابة سؤالا بسيطا واحدا : لو فرضنا ان ابن الفارض عاصر العباسيين في عهود مجدهم ،هل كان يسلك سبيل المتصوفة ؟ لقد كان له من نقاء القلب وتدفق العواطف ، وسعة الافاق ، وغزارة التجارب ، واباء النفس، وتعشق الجمال ، والتجاوب مع موسيقى الكون ، ما يعينه على ان يكون فيلسوفا عظيما كابن سينا ، او موسيقيا مبدعا مثل زرياب او شاعرا ملهما مثل المتنبي ! اما ان يصير متصوفا فشيء بعيد الاحتمال . ومع ذلك فان التصوف كان مصيره الاخير ، فما هو السر واين التفسير ؟ الواقع ان الحظ لم يسعف ابا حفص كما اسعف ابا الطيب من قبل ، ذلك ان ابن الفارض لم يطل على العالم أيام شباب الزمان . وانما قدر له ان يعاين ساعات الاحتضار للكيان الحضاري الكبير ، وظل يرقب باسى وحسرة شمس الحضارة العربية وهي تنحدر

الى المغرب وتسير الى الفناء ، وفي عهده انحسر مد الحضارة الاسلامية العربية ، وصوحت اغصان الابداع الفكري ، وأطل على الدنيا وجه الفترة المظلمة المكفهر البشع .

كان لابن الفارض سذاجة طفل وارادة بطل وقلب شاعر ، وكان عاشقا للجمال ، متطلعا الى المجهول ، راغبا ان يدرك ويفهم ويعرف. ولكنه لم يكن حرا - مثل المتنبي - في اختيار طريقه . ففي عصره بدأت سحب الشر تتجمع منذرة بالويل والدمار والهلاك اذ شرعت الفرنجة تقتطع اعضاء الامبراطورية العربية عضوا عضوا . وفي ايام صباه صوحت اخر دوحة للمجد بوفاة صلاح الدين الايوبي البطل الشجاع والقائد المظفر الذي يذكرنا بسيف الدولة الحمداني اذ وقف كلاهما طودا شامخا وشوكة مؤلمة في حلوق الطامعين البيزنطيين ، ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل طلعت الوحوش التترية من الشرق وراحت تزحف بجموعها الجرارة نحو الدولة الجريحة ، وفي نيتها ان تنهش بقايا الجسد الهزيل .

نظر ابن الفارض حوله يتأمل شؤون دنياه ، ونملكته حيرة شديدة اذ لم يستطع ان يجد اي تفسير مقنع ومعقول لتبدل الاحوال وخراب العالم العربي بعد طول الازدهار . لقد ساوره احساس خفي بان كارثة فظيعة توشك ان تحيق بقومه وبامته كلها ، ولم يكذب ظنه فبعد وفاته بربع قرن سقطت بغداد مقهورة ذليلة على يد هولاكو ،ودالت دولة العرب واكتملت فصول المأساة .

لم يعلم عمر ما يختار ،ولا وجد السبيل الذي يسلكه ،وطالت حيرته وبرحت بقلبه الهموم . كان انسانا وادعا مرهف الحس تؤذيه قسوة الوقائع الجارية ، وقد لقنه ابوه : رجل الدين التقي الورع الا امل يرجى في تحسن الاحوال بعد ان استشرى الشر واستكانت النفوس ووهنت العزائم . فقر رأي الشاب الا يزج بنفسه في تعقيدات الشؤون السياسية، ومن ناحية اخرى كانت دولة الشعر قد دالت ولم يكن لامراء زمانه من الفراغ وراحة البال وامتلاء الجيوب ما يمكن ان يبذلوه من اجل تشجيع الفن والادب . وهكذا بات الشعر سلعة خسيسة تباع بارخص الاثمان . وحدث ان اباه - الفارض للنساء - كف عن الاستمرار في عمله الرسمي منصرفا الى العبادة ، ومنقطعا الى الزهاد والمتصوفة ، ولم يكن ابنه - عمر - ببعيد عن اولئك المتصوفة، ففي مطلع صباه امر صلاح الدين الايوبي بقتل العارف الفقير شهاب الدين السهروردي اذ رأى فيه مجرد رجل طامح الى الزعامة والنفوذ، وقد اتخذ الصوفية ستارا يخفي بها نواياه . ولعل هذه الحادثة كانت ذات أثر بليغ في نفس الفتى الشاعر ، اذ اثارت لديه رغبة شديدة في ان يعرف الحقيقة وينشدها بنفسه .

سعى ابن الفارض اذن في الارض باحثا عن الحقيقة فلم يجد ما يشفي غليله ، ويهدىء نفسه الثائرة المضطربة . كانت المثل العليا التي اهداها للانسانية المعلمون الكبار قد شوهت وزيفت وبهت منها اللون على ايدي من كانت الامور والمصائر بأيديهم . وفي مثل تلك الاحوال تجف المياه في عروق شجرة الفكر ، فتذبل اغصانها وتذوي اوراقها ، ومن ثم تتراجع روح الابداع الى المؤخرة ، ويطبل ويزمر للادعياء والمشعوذين ، فينكمش المنكر ، وينزوي الفيلسوف ، ويفر الفنان الى كهوف الظلام متهيبا النور ، ومنطويا على الفراغ والوحشة والملل .

بعد هذا يحق للقارىء ان يتساءل : هل صار ابن الفارض صوفيا بالمصطلح الحقيقي للكلمة ؟ والجواب نعم ، فلقد انصرف الى عالم (الحقيقة) وعكف على (الرياضة) مجتازا (المراتب) واحدة تلو الاخرى على طريقتهم . ثم سار الى مكة ولبث فيها خمسة عشر عاما بعيدا عن الوطن والاهل والابناء . ولما عاد الى مصر ، كان قد امسى شيخا - وسلطانا للعاشقين - يتبرك الناس بمحضره وبملامسة يده !

وهكذا حقق هدفه وبلغ غايته ، وكانت خاتمة حياته كما ارادلها ان تكون ، مات في حالة الوجد التام . فبينما هو يسير في الطريق في أحد الايام اذ سمع نائحة تبكي على سيدتها ، وتردد بيتا عاميا من الشعر ، فما كان منه الا ان يتوقف عن مسيره ويصيح السمع ثم يصيح صيحة مدوية ، وتبدأ عنده حالة (التواجد) ، ويتحلق الناس حوله ويفعلون فعله ، ويكون يوما مشهودا يختتم بسقوط عمر فاقدا للوعي ، ثم لا يفيق الى ان يقضي نحبه .

كيف يبرر المثقف العصري مسالك الصوفية وفعالهم ؟ اما كاتبة المقال فهي لا تحب ان تحشر نفسها في الفاز التصوف ، على ان من النافع والمفيد ان نتذكر في هذا المقام ان المسلمين الاوائل - وفي مقدمتهم الرسول العظيم . لم يسلكوا مسالك الصوفية ، ولا استعملوا مصطلحاتهم ، ولا غرقوا في بحار الضباب التي وصفوها . بل ان الامر كان على الضد من ذلك . فنحن نعلم ان الرسول الكريم كان - بخلاف ما هو معروف من صفات المتصوفة - رجلا واقعيا شديد الحيوية كبير الشغف بالحياة وبكل ما هو جميل زكي رفيع فيها،وهو القائل (الله جميل يحب الجمال)، وقد سلك في كل شان من شؤون الحياة مسلكا ايجابيا واضحا لا لبس فيه ولا غموض . ودعا الى الصراحة والصدق. وحارب التقشف المرتبط بالرهبنة ، وابغض التردد والسلبية وسوء الظن والتشاؤم ، واليأس ، والرضى بالامر الواقع، والخنوع للقوة الغاشمة ، والهرب من الحياة والواقع . ورغب الناس في العمل وحذرهم من التواكل والتقاعس لانهما يؤديان الى الفقر الذي يمقته (كاد الفقر ان يكون كفرا) وكان يحب للمسلم ان يكون معتدلا متزنا ، راجح العقل ظاهر الحكمة كثير المعاونة والنصح لابناء قومه . وكثيرا ما اعلن سخطه على الكسالى ، وقد فضل العمل للصالح العام على العبادة ذاتها . (عمل ساعة خير من عبادة ستين سنة). وتتلمذ عليه في كل ذلك الصحابة النجباء : فكان (عمر) يمقت العاطلين ويجبرهم على العمل . اما الامام علي فهو من الناحية الثانية ، شن حربا لا هوادة فيها على الغلاة ، وعاملهم بمنتهى القسوة ، وهو المشهور بالمين والرحمة حتى مع اعدائه .

ثم ان الدراسات الحديثة للتصوف تشير الى مصادره الوثنية، والمسيحية المتأخرة ، والى أفكار الافلاطونية الحديثة . وذلك - في رأي نيكسون ، وهو المستشرق المتخصص في الدراسات الصوفية - هو التفسير الحقيقي لكون كبار المتصوفة مثل جلال الدين الرومي والشيرازي وغيرهما هم جميعا من غير العرب .

ان الذي يهمنا في مبحثنا هذا هو أدب التصوف، وليس سيرة المتصوفة . ولهذا الادب الصوفي قيمة فنية عالية لا بد لمؤرخ ادبنا ان يحسب لها الحساب .

ولد ابن الفارض في مصر ، ونشأ في دار ابيه المتدين التقي وسعى الفتى سعيا حثيثا ليتوصل الى صيغ توفيقية تجمع بين المتناقضات: بين نزعته الجمالية المجردة ، وعاطفته الدينية المتوهجة ، وثقافته الاجنبية الاصول . فكان ان حقق ذلك في شعر وجداني رقيق عذب، يشف عن لوعة نفس كبيرة ، اضناها طول البحث عن المثل الاعلى . وعلى الرغم من اننا نسمعه يردد في تائيته الكبرى المرسومة « بنظم السلوك » ، بانه وجد الحقيقة وكشفها وتجلت له حين فنيت ذاته في ذات الله وذابت فيها - على حد تعبيره - فاننا - مع ذلك - نجد في كل قصائده ان روحه ظلت تتعذب وان قلبه لبث محترقا داميا الى ان تاه وضاع وفني !

هذه - على سبيل المثال - مختارات من تائيته الكبرى : -

فيا مهجتي ذوبي جوى وصبابة : ويا لوعتي كوني كذاك مذيبتي
ويانار احشائي أقيمي من الجوى : حنايا ضلوعي فهي غير قويمة
ويا جسدي المضنى تسلّ عن الشفا : ويا كبدي من لي بان تتفتت
نهاري اصيل كله ان تنسمت : اوائله منها برد تحيتي
وان رضيت عني فعمري كله : زمان الصبا طيبا وعصر الشبيبة
اسائلها عني اذا ما لقيتها : ومن حيث اهدت لي هداي اضلت
واطلبها مني وعندي لم تزل : عجبت لها بي كيف عني استجنت!!

وأنظر في مرآة حسني كيادى : جمال وجودي في شهودي طلعتي!
الى أن بدا مني لعيني بارق : وبان سنا فجري وبانت دجنتي
هناك الى ما أحجم العقل دونه : وصلت وبي مني اتصالي ووصلتي!!
وعانقتني لا بالتزام جوارحي الجوانح لكنني اعتنقت هويتي
وعن شرك وصف الحس كلي منزه : وفيّ وقد وحدت ذاتي نزهتي

لقد كان ابن الفارض انسانا حالما ، تتملك خياله الرؤى الملونة والاطياف المشعة ، وكان قلبه الشاعر يهيم في عوالم جمالية غامضة لا يمكن تبينها ، او رسم صورة واضحة لها . وكان يحس بانه على اتصال عميق بموسيقى خفية تهتز لها روحه ، ويخفق من اجلها فؤاده . وفي بادى الامر خيل اليه ان الشعر سيطفىء ظمأ روحه، ولذلك فان قصائده الاولى تكاد تطفح باللطف والعذوبة ، وتوشك أن تسيل رقة وسلاسة ، وكمثل على ذلك هذه الابيات : ـ

قلبي يحدثني بأنك متلفي : روحي فداك عرفت ام لم تعرف
لم اخل من حسد عليك فلا تضع : سهري بتشنيع الخيال المرجف
اخفيت حبكم فاخفاني اسى : حتى لعمري كدت عني أختفي !!
وكتمته عني فلو ابديته : لوجدته اخفى من اللطف الخفي

الا ان الشعر في عهده لم يكن في حالة قوة وازدهار ، ومنزلة الشعراء كانت قد هبطت الى الدرك الاسفل ، فليس غريبا اذن ان ينصرف (عمر) عن الشعر ، ويعاود بحثه الدائب عن (الحقيقة) عله يجدها في مكان اخر . وليس من ريب انه طلب بغيته في الحب ، وشعره اصدق شاهد على ذلك ، وقد عشق وبنى بفتاة وانجب الاولاد ـ بخلاف المتصوفة الذين يعزفون عادة عن الزواج ، ويبغضون النسل ـ ولكن تجربة الحب عجزت ان تروي غليله . لقد كان عليه ان يتجاوز مرحلة العشق الارضي ! ومن قبله توصل ابو الطيب المتنبي الى النتيجة ذاتها ، اذ رأى الحب قاصرا عن اطفاء ظمأ النفوس المتطلعة الى المعرفة . وذلك يفسر قوله :

وللخود مني ساعة ثم بيننا : فلاة الى غير اللقاء تجاب

او قوله :

وغير فؤادي للغواني رمية : وغير بناني للزجاج ركاب

وكان ابو الطيب يعتقد ان غشاوة الحب تحجب الحقيقة عن عيون العشاق :

مما أضر بأهل العشق انهم : هودا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا
تغنى عيونهم دمعا وانفسهم : في اثر كل قبيح وجهه حسن

على ان ابا الطيب ـ غفر الله له ـ ما كان يصور مثل هذا الحكم الجائر على (المعشوقات) لو كانت النساء في عصره متمتعات بالكرامة والحرية . وعلى هذا فان الاستشهاد بمثل هذه الابيات ليس دليلا على تأييدنا لآرائه الخاصة .

لقد خبر ابو الطيب اذن تجربة الحب ، ولكنه لم يخرج منها الى عوالم الضباب التي غرق بها ابن الفارض . بل وجد ـ اعني المتنبي ـ في الصداقة القائمة على تفاهم العقول وتجاذب النفوس شيئا انبل وأكمل ، لذلك آمن بالصداقة وجحد الحب . وفي ذلك بيان وشرح لما نجده في مدائحه لسيف الدولة من كنايات الحب ورموزه من مثل قوله : ـ

واحر قلباه ممن قلبه شبم : ومن بجسمي وصالي عنده سقم
مالي اكتم حبا قد برى جسدي : وتدعي حب سيف الدولة الامم

او قوله :

اذا كان مدح فالنسيب المقدم : اكل فصيح قال شعرا متيم
لحب ابن عبدالله اولى فانه : به يبدأ الذكر الجميل ويختم
اطعت الغواني قبل مطمح ناظري : الى منظر يصغر عنه ويعظم

المتنبي انما غنى للحياة الظافرة ، ولقد ترنم بالمآثر الجليلة ، واهدى الحانه الدفاقة لكل نفس تنشد الكمال ، وتتوق للمعالي ، كان ادبه الوجه الاسمى والانبل لحضارتنا العربية في عهود ازدهارها . فشعره منهج للفنانين ، وسيرته مدرسة للابطال . وكان فنانا حالما تتراءى له رؤى الكمال الانساني ويسعى أن يحققها بنفسه ، وذلك يفسر عزوفه عن الملاهي الرخيصة التي يشغل بها الشباب اوقاتهم، فكان يكره الخمرة ويتجنب اتيان الفعال التي تحط من قدر الانسان، وشعره في هذه المعاني كثير . والابيات التالية نموذج منه :

وجدت المدامة غلابة : تهيج للقلب أشواقه
وأنفس ما للفتى لبه : وذو اللب يكره انفاقه

او قوله :

واني لنجم تهتدي صحبتي به : اذا حال من دون النجوم سحاب
واصدى فلا ابدي الى الماء حاجة : وللشمس فوق اليعملات لعاب
وللسر مني موضع لا ينالـه : نديم ولا يفضي اليه شراب
وغير فؤادي للغواني رمية : وغير بناني للزجاج ركاب
تركنا لاطراف القنا كل شهوة : فليس لنا الا بهن لعاب

واشتد شغفه بالبطولات والامجاد ، وكان قبل كل شيء عميق الايمان بمواهبه الذاتية ويطيب له ان يظهر بمظهر بطل الابطال وامير الشعراء والمثل الاعلى للرجال . وبذلك كله فالمتنبي قد حقق رؤاه واشبع نوازع نفسه، اذ نهل من منابع الجمال وعب من رحيق الحياة وارتوى. وهذا يفسر توقعه للموت في آخر قصيدة انشدها قبل وفاته فقدادرك ان حياته قد اكتملت وان الشعلة لا بد لها من بعد ان تنطفىء وتخبو .

واذ بدا الستار يسدل على الفصل الاخير من حياته ابى ان تمر الاحداث من غير ضجيج او اثارة . فحين نصح له ان يأخذ الحذر من الاعداء المتربصين له في طريق السفر ، ضحك واستخف بعددهم الكبير، ومضى لسبيله غير مبال ولا عابىء . وهكذا لم يكتب له ان يموت هاربا او جبانا بل قتل في معركة غادرة غير متكافئة ، دافع فيها عن نفسه دفاع بطل مقدام ثم خر من على ظهر فرسه صريعا مضرجا بدمه . وبذلك حقق مشيئته ، وبقيت للناس الصورة التي أرادها لنفسه بكل فخامتها وجلالها . وتمت حياته كما ينبغي للحمة الامجاد ان تتم .

اما ابن الفارض فالامر لم يجر معه على هذه الصورة وبمثل تلك البساطة . فالايام لم تكن له بمساعدة ولا مسعفة . اذ كانت الشمس تغرب عن ارض قومه العرب رويدا رويدا ، والظلام يزحف الى اعماق النفوس فيفسدها ويخربها ، والفن لا يستطيع ان يجد متنفسا في مثل تلك الاجواء الفاسدة ، وهكذا صار على (ابي حفص) ان يعاود البحث ويستمر في رحلته المتعبة الطويلة .

ولما اضناه العذاب ، وهيمن اليأس على روحه اغمض عينيه واصم اذنيه ومضى يدق باب المتصوفين ، ثم ولج الى الداخل ولم يخرج بعدها ابدا !

عند ذلك قضى الفنان وانتهى الشاعر وخسر الادب موهبة كبيرة كان يمكن ان يكون لها شان عظيم في تاريخ ادبنا لو عرف صاحبها كيف يحسن تقييمها واستثمارها .

* * *

بعد كل هذا نستطيع ان نلحظ التماثل والتجانس في الظروف البيئية ، والعوامل السياسية ، والهموم الفكرية والجذور التاريخية ، والخصائص الشخصية ، وحتى الملامح الظاهرية للشاعرين : المتنبي وابن الفارض .

اما البيئة فمن المعلوم ان حياة ـ الرعية ـ على عهد المتنبي ـ لم تكن بافضل من حياتهم في عصر ابن الفارض ، اي بعد ثلاثة قرون من الزمان . فقد كان الخراب والتشتت والفساد هي الملامح المميزة لكلا العهدين . وطيلة القرون الثلاثة التي تربط ما بين الشاعرين تلاعبت المطامع الاجنبية بالدولة العربية ، وظلت المنافسة الحادة بين الامراء المسلمين هي الطابع المميز للاحوال السياسية العامة . وثمة رابطة تجمع ما بين عصري الشاعرين ، ففي القرن الرابع للهجرة وقف الامير العربي المسلم سيف الدولة الحمداني يتحمل

بمفرده عبء الدفاع عن الكيان العربي والحضارة الاسلامية فبدا شبيها بنجمة متلألئة في ظلام ليل بهيم . وكذلك ظهر صلاح الدين الايوبي، البطل الكردي المسلم في نهاية القرن السادس للهجرة ، اذ وثب كالاسد الباسل يرد عوادي الزمان ، ويدرأ الاخطار عن العالم العربي والاسلامي كله ، متحملا ـ وحده مسؤولية امة وجيل كامل من الناس . وما كاد البطلان النبيلان الشجاعان يمضيان الى مستقرهما الاخير ، حتى عاد الوهن ـ والتفتت ـ يتأكل جسم الدولة العربية . وبذلك صارت وفاة كل منهما خاتمة فصل من فصول الكتاب ، كتاب حضارتنا المجيدة .

ثم ان كلا من الزعيمين الشهمين رعى شجرة الثقافة وسقى دوحة الفكر بما بذل للمفكرين والشعراء والعلماء من تعضيد وتشجيع . وبذلك ساهما في حماية البناء الحضاري السامق من السقوط ، وبفضل جهودهما الرشيدة والمخلصة طال عمر الدولة العربية ،وبلغت حضارتها ما قدر لها ان تبلغ .

فالمتنبي على هذا هو شاعر العرب لعهد سيف الدولة الحمداني، اما ابن الفارض فهو شاعرهم لعهد صلاح الدين الايوبي، والمقارنة هنا شديدة الطرافة والاثارة في الواقع .

ثم ان التماثل بين الشاعرين يظهر بشكل اشد واوضح اذا ما قارنا بين سيرتيهما وطبائعهما وشخصيتيهما ، فكلا الرجلين نشا في بيئة دينية خاصة ، ترعرع الاول في الكوفة مدينة العلويين، وشب الثاني في القاهرة حاضرة الفاطميين ، وكلاهما قضى شطرا كبيرا من حياته مع عرب البادية مستمدا من هناك جذور ثقافته. ولقد تهيا للاثنين ان يكونا من امور الدولة والسياسة على دراية تامة : فاما احمد المتنبي فقد وقف من الدنيا والناس والاشياء موقفا ايجابيا صريحا وشجاعا ، وكان مؤمنا بمثل القرون الوسطى من جهة ، وشديد الثقة بنفسه وقدراته ومواهبه من جهة اخرى ، وهو رجل واقعي ، اراد ان يحقق مطامحه ـ التي يؤمن بعدالتها وبجدارته هو بها ـ عن طريق التمرد والثورة ، ولذلك جمع حوله الانصار من الاعراب ، وحاول ان يسيطر على احدى الولايات،وذلك هو اسلوب زعماء زمانه في تحقيق اراداتهم . ولما فشل وخاب استغل اعداؤه ذلك للغض من شانه وللتشهير به . ولكن شعره وشخصيته وسيرته وكل ما يتصل بهذه النفس الخيرة الابية المقدامة بقي منارا ونبراسا لكل الشبان الذين تتوهج في نفوسهم شرارة الالهام ، وتتقد في ضمائرهم روح الثورة ، وتدفعهم ارادتهم الجبارة الى العمل، والمضي في السبيل المرسوم رغم الاشواك والعثرات والعراقيل .

واما شرف الدين ابن الفارض فقد نشا في بيئة متحفظة وفي ظروف اشد تعقيدا من تلك التي احاطت بابي الطيب ، وكان كصاحبه ابي الطيب مرهف الشاعر واسع الامال متوقد الذهن وفي الوقت ذاته كان رجلا انيسا حلو المعشر ، عفيف النفس ، مبغضا للدجل والكذب ، مؤثرا للانطواء والحياء . ومن صفاته التي لازمته طيلة الحياة شدة الحذر ، وكثرة التحوط ، ومجانبة التهور ، وتلك هي الخلال التي افتقر اليها ابو الطيب ، فعرّضه افتقاره اليها الى سهام الاعداء .

درس ابن الفارض افكار الفلاسفة بعد ان نهل من منابع الشعر العربي ثم لجا الى المتصوفة يدربونه ويلقنونه من غامض علمهم . وكان قد تعلم من سيرة الحلاج والسهروردي وغيرهما من شهداء المتصوفة ما منعه من الاغراق في التصريح بالعبارات الاستفزازية من مثل تجديف الحلاج : (ما في الجبة الا الله) ! اومثل عبارة رابعة العدوية الشديدة السذاجة (انا لم اذهب الى الكعبة بل ان الكعبة قد جاءت اليّ !) وكيف يتفوه بمثل تلك العبارات وهو ابن عالم فقيه ، يعلم ما يجره اللسان الاهوج على صاحبه من فواجع ونكبات ؟ ولا مراء انه تامل في حادثة (خروج) المتنبي على امراء الشام ، واستخلص منها العبر والعظات . ولذلك وجدنا ابن الفارض يصر في اشعاره على التنصل من شطحات المتصوفة لا سيما من اتهم منهم في دينه ، او في خلقه . وقصائده الصوفية تظهره رجلا مؤمنا مسلما لم يعبث الشك بقلبه، ولم يسلبه الاغراق الصوفي في الخيال ، عقله او رشده ! وفي قصيدة (نظم السلوك) يؤكد استنكاره للافكار الحلولية والمذهب التناسخ ولغيرهما من المذاهب التي نادى بها بعض الغلاة . ان حذره ذاك هو الذي قرّبه الى الناس . وان احاديثه الصوفية لم تغضب المؤمنين ولم تستنفر مشاعر الاتقياء . ونحن نسمع من حفيده ، العجب العجاب من الروايات التي يثبت فيها محبة (العامة) له وتبركها بملامسة ثيابه، او تقبيل يده ، رغم ان تواضعه وحياءه كانا يمنعانه من تقبل تلك المظاهر التكريمية .

ان الباحث في سيرة ابن الفارض ، المتتبع لآثاره الادبية لا بد ان يسترجع في ذهنه صورا واصداء تركتها فيه دراسته لسيرة المتنبي وروايته لشعره ، حتى كان الشاعرين اخوان توامان وقف بينهما جدار الزمن ، فما علينا الا ان نعيد جمع الشمل بعد ان مزقتهما العصور ، وباعدت بينهما التواريخ .

وسلاما على ارواح الملهمين .

بغداد

احسان الملائكة

محمود احمد السيد

رائد القصة الحديثة في العراق

تاليف

الدكتور علي جواد الطاهر

اول دراسة مسهبة عن رائد القصة العراقية الحديثة الذى اثار اهتمام المستشرقين والباحثين بما انتجه من روايات وقصص مهدت الطريق لجميع كتاب القصة الحديثة في العراق

صدر حديثا عن دار الآداب ، ببروت